تحديات الكتابة باللغة العربية في الأبحاث الاجتماعية (صور الأزمة ووسائل التطوير)

د. آمال محمد بايشي

مُفتتح الإشكال

لقد تزايد الاهتمام بالبحث العلمي في مختلف الدراسات والتخصصات العلمية، حيث أخذت الدراسات الاجتماعية تتسابق فيما بينها من أجل إحراز مزيد من التقدم في مجال البحث العلمي، لما لذلك من علاقة وأثر واضحين في تحسين وتطوير الحياة الاجتماعية.

لكن ثمة تحديات كثيرة للكتابات البحثية باللغة العربية في الدراسات الاجتماعية، فالأمر أصبح يرتبط بوجود أخطاء منهجية متعلقة بالأساس بعدم الاتفاق على المدلول اللغوي للمفاهيم والأدوات المنهجية المناسبة لها أو الخلط بين الدلالة اللغوية والإجراءات المنهجية مما أدى إلى انحراف المنهج وطرق ووسائل التحليل.

ومن هنا، تعاظمت صور الأزمة العربية في إنتاج المعلومات والنظريات في مجال الدراسات الاجتماعية، التي أضحت تتعلق بصعوبات ربط المفاهيم والمصطلحات والاتفاق على المحدّدات الخاصة بكل مفهوم ليس لقصور اللغة العربية إنما للجهل بقواعدها وضوابطها أثناء كتابة البحث وتحديد نتائجه.

بالتالي هناك أسئلة كثيرة تحوم حول صور أزمة الكتابة (العربية) البحثية في المجال الاجتماعي، والأخطاء الشائعة فيها، وإلى أي مدى يمكن للأخطاء التي تعزى إلى اللغة الفنية واللغة العلمية الحد من صياغة نظرية اجتماعية عربية حديثة؟ وهل هناك وسائل لضبط اللغة العربية في جميع المراحل التي تمر بها حركة نقل المصطلحات إلى العلوم الاجتماعية؟

مبررات الموضوع

إن تسليط الاهتمام على تحديات الكتابة باللغة العربية في الأبحاث الاجتماعية جاء نتيجة جملة من المعطيات والمبررات الآتية:

- تعد اللغة أهم أدوات المعرفة، وبدونها يتعذّر النشاط المعرفي للأفراد. حيث يمكن صياغة الأفكار البشرية دوماً عن طريق قالبٍ لغوي حتى في حالة التفكير الداخلي أو الباطني.
- أن الباحث الاجتماعي الذي لا يدعم قدراته البحثية بمقدرة لغوية قوية عاجز على توجيه مفاهيم ومصطلحات ومتغيرات بحثه نحو الصياغة النظرية المرغوبة أو إيجاد الحل الملائم للمشكلات.
- أصبحت قضايا اللغة العربية: شخصية /اجتماعية تعزى لعدم الانحياز للغة العربية في حد ذاتها وليس لقصورها في الضبط والدقة.
- القلق الذي يحوم حول مستقبل الكتابات باللغة العربية في مجال الفكر الاجتماعي وجودتها بحيث تساهم في خدمة الفرد والمجتمع.
- لفت الانتباه إلى تنامي الاتجاه العلمي القائم على المنهج الكمي عل حساب المنهج الكيفي أو التعددية المنهجية للوصول إلى حل المشكلات وبناء النظريات الاجتماعية، لأن في هذا التوجه (الكمي) استخدام للغة الأرقام والتحليل باستخدام الإحصاء الوصفي أو الاستدلالي بدل التحليل الكيفي الذي يستخدم ألفاظ وكلمات وصفية أو سردية.
- ترسيخ مبدأ المعادلة المنهجية التي تجمع بين العلمية والإبداع، أي الجمع بين أسلوب الكتابة والتنسيق المنهجي للتوصل إلى نظريات عربية تسهم في فهم التغيرات المجتمعية الحاصلة والمرتبطة بهوية اللغة العربية.

أولا، التفكير المنهجي في بلاد الشرق خلال العصور الوسطى

من الخطأ أن يستبعد الفكر العربي والإسلامي منهجيا من إطار التقنين العقلاني لتنهيج الفكر والبحث، كذلك من الخطأ أن نحكم على هذا الفكر منهجيا بما اكتسبه هذا المنهج من عطاء في العصر الحالي. فقد اتصف هذا الفكر في مراحله الماضية بأنه كان ينظر إلى الواقع وقضاياه ومشكلاته من خلال بناء علاقة بين مناهج التفكير أو مناهج البحث أو مناهج التعامل من جهة والصورة التي نجد عليها واقع الناس وأحوالهم من جهة أخرى. ومن ثم تصبح هذه العلاقة وسيلة لفهم الظواهر وتفسيرها.

أ. خصائص التفكير المنهجي لدى علماء الحضارة العربية:

يشهد استقراء تاريخ الفكر البشري بأن علماء الحضارة العربية كانوا أسبق من الغربيين إلى نقض منطق أرسطو النظري وإتباع المنهج التجريبي قبل بيكون بعدة قرون، حيث نجد أنهم:١

- درسوا مرحلة الفكر اليوناني بأسلوب النقد والتحقيق ثم القبول والرفض والتعديل لأراء هذه المرحلة.
- واستطاعوا أن يميزوا بين طبيعة الظواهر العقلية الخالصة من جهة والظواهر المادية الحسية من جهة أخرى، وفطنوا إلى أن استخدام الوسيلة أو الإدارة التي تستخدم في هذه الظواهر يجب أن تناسب طبيعة كل منها.
- واتجهوا إلى المنهج التجريبي الاستقرائي عن خبرة ودراية بأصوله وقواعده وأحرزوا على أساسه تقدما ملموسا في حركة التطوير العلمي والتقني.
- واستندوا على اختلاف تخصصاتهم، في ممارستهم للمنهج العلمي، إلى القرآن الكريم الذي زودهم بمواضيع كثيرة ومصطلحات وفيرة، ساعدتهم على الربط بين الفرض العلمي والخيال العلمي والواقع.

من هذا المنطلق، سجل العلماء العرب سبقا علميا بطرحهم مشكلة التعميم في الاستقراء والفجوة التي يستنبطها هذا التعميم، فأثاروا مشكلة الاستقراء وأصبحت من المشكلات العلمية التي عالجوها في بحوثهم. فقد انتهوا إلى أن الاستقراء لا يمثل سوى مرحلة من مراحل الاستدلال العقلي. وبهذا أكدوا قضية ضرورة تطوير المناهج فمارسوا منهج القياس والتمثيل والمنهج الفرض والمنهج الرياضي.٢ ومن ثم فاقوا علماء المناهج المحدثين من الغربيين.

ب. منهجية علوم الإنسان لدى علماء الحضارة العربية:

لقد اعترف علماء الحضارة العربية بمكانة العلماء السابقين، لكنهم عدلوا كثيرا من أفكارهم وعملوا على تقسيم العلوم التي ورثوها إلى ثلاث مجموعات:٣

- مجموعة العلوم الطبيعية مثل: الفيزياء والكيمياء والفلك وعلم الحياة وعلم النبات وعلوم الأرض والعلوم الطبية.
- مجموعة العلوم الرياضية مثل: الهندسة والجبر والحساب وعلم المثلثات.
- مجموعة العلوم الإنسانية مثل: التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع.

وفي إطار المجموعات الثلاث، أسهم علماء هذه المرحلة في تطور العلوم البحتة والتطبيقية، ويظهر ذلك بشكل واضح في نظرياتهم المتعددة في العلوم الرياضية والفيزيائية والكيميائية والفلكية والطبية والصيدلانية وغيرها. كما تطور الفكر الاجتماعي نتيجة أفكار بعض العلماء العرب من أمثال القرميزي والفارابي وابن خلدون الذي ابتكر علم جديد أسماه "علم العمران البشري أو الاجتماع الإنساني" وذلك من خلال نقده لروايات المؤرخين وأخبارهم، وتحديده لموضوعات ومناهج هذا العلم الجديد بصورة موضوعية واعتماده على الوصف والمشاهدة والتعبير عن الواقع بأسلوب مميز في التحليل المقارن للكثير من مظاهر الحياة.

ويرى بعض المحلّلين، أنه بعد أن أصبحت مقدمة ابن خلدون في متناول علماء الغرب، تغيرت كثيرا من الآراء المنهجية التي كانت لديهم فيما يتعلق بالاقتصاد والسياسة والفلسفة والتاريخ لأنهم انتبهوا إلى أن ابن خلدون قد خصّص فصلا في مقدمته المشهورة لإبطال الفلسفة وفساد منتحلها، حيث نقد ابن خلدون موقف الفلاسفة ومنهجهم في المعرفة ودعا إلى المعرفة اليقينية الواقعية التي يمكن الوصول إليها

عن طريق الملاحظة.٤

ومن هذا المنطلق، تميز علماء الحضارة العربية في علوم الإنسان عن غيرهم من العلماء السابقين واللاحقين بأسلوب الكتابة البحثية والطرح الفكري بما يتناسب والحقيقة الاجتماعية وفق أخلاقيات تحكم الباحث والبحث ونتائجه. وهنا نذكر دور اللغة العربية التي استندت إلى لغة القرآن الكريم في دلالاته العلمية والمنهجية من ثم صوبت التفكير نحو الوصف والتحليل والتنبؤ. فمن المفيد أن نشير إلى أن " القرآن الكريم نقطة الانطلاق " حيث: استخدمت نفس المفردات اللغوية للوصول إلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال وعلى سبيل المثال: استخدم "الحسن ابن الهيثم" لفظ الاعتبار (وهو لفظ قرآني) ليدل على الاستقراء التجريبي والاستنباط العقلي ويستخدم قياس الشبه في شرحه لتفسير عملية الإبصار وإدراك المرئيات، كذلك نجد "أبا بكر الرازي" يستخدم الأصول الثلاثة: الإجماع والاستقراء والقياس في تعامله مع المجهول وهكذا.٥

فقد أسهم القرآن الكريم بتيسير لغة العلم من خلال مصطلحات الدقة والوضوح والاختزال والنص القاطع وغيرها من السمات التي يتصف بها العلم نفسه. فأصبحت علوم الإنسان تتخير لنفسها من الألفاظ والأساليب ما يعبر عن حقيقتها، فلكل موضوع أدواته اللغوية المناسبة التي تسعى إلى لغة صالحة للتعبير عن الفكرة العلمية، ذات دلالة واحدة لا تتعدد وتكون فيها الألفاظ بقدر المعاني لا تزيد ولا تنقص.

فالعربية ليست منقطعة عن تاريخها العلمي، ولن تستقيم هذه اللغة في الكتابات العلمية المعاصرة إلا أن يوليها أهل العلم عنايتهم. فلن يصلح جهدهم وعلمهم إذا ما أغفلوا الاهتمام بالوسيلة التي تنقل هذا العلم. ولعل عدم اهتمامهم بلغة علمية عربية ينعكس سلبا على علومهم وتقدمها. من ثم لا ينبغي أن نقطع اللغة العلمية العربية عن تراثها كما جاء على لسان بعض الباحثين المعاصرين: إن العرب قد عنوا باختيار ألفاظهم العلمية، فمن هذه الألفاظ ما يزال صالحا تماما للكتابة العلمية المعاصرة ... ويجدر بنا أن نتمسك ببعض الألفاظ التي استعملها العرب الأوائل، والتي تقدم تعبيرات أكثر دقة وأشد طلاوة من كلمات مرادفة لها في كتاباتنا العلمية المعاصرة.٦

ثانيا، الأخطاء المنهجية في الأبحاث الاجتماعية العربية المعاصرة:

أصبحت الكتابات العربية للفكر الاجتماعي، تعاني من صعوبة تشخيص الواقع وعدم الغوص في أعماقه لتحديد أبعاده ومشكلاته. وتعاني من تكرار الخطأ أو شيوعه لعدم توحيد الدلالات العلمية والمنهجية للمفاهيم والمصطلحات المستخدمة في الأبحاث الاجتماعية. ورغم أن اللغة العربية هي التي كانت سبب في دقة النتائج والتعميمات في الحضارة الإسلامية فإنها هي اليوم تقف عائقا أمام الإبداع، ويظهر كأنها السبب الرئيس لمعوقات البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية بشكل خاص لأنها خضعت لتعريب التعليم بشكل كامل في حين أن علوم الطبيعة والحياة لم يمسها التعريب إلا بشكله الجزئي.

وقد سجلت الدراسة الحالية مجموعة من الملاحظات، من خلال مراجعة بعض الدراسات والأبحاث الاجتماعية، المنشورة في المجلات العلمية العربية:

١. أن هناك تجاوزات في استخدام المنهجية العلمية مما قد ينعكس على نتائج تلك الأبحاث سلبا ويقلل من مصداقيتها.

٢. أغلبية استخدام المنهج الكمي والمعالجات الإحصائية في الأبحاث الاجتماعية مقارنة بالمنهج النوعي.

٣. تطبيق النظريات ومفاهيمها وليس محاولة التوصل إلى نظريات جديدة في المجال الاجتماعي.

على كل تتراكم الأخطاء من مصادرها المختلفة وتلحق أذى كبيرا بنتائج البحث وهناك مصدران أساسيان، بنظر الدراسة الحالية، للأخطاء هما:

أ. أخطاء تعزى إلى اللغة الفنية للباحث:

يعد البحث العلمي في الأساس عملية أخلاقية ومعرفية ومنهجية لكشف حقائق ذات أهداف وغايات للارتقاء بتنمية المجتمع ورفاهيته محليا ودوليا، ويستخدم لغة فنية لإيصال ونقل المعاني. ٧ وهذا يعني، على الباحث التقيد بلغة فنية تسمح له بتحديد أهداف دراسته

للوصول إلى نتائج يمكن توسيعها أو تعميمها.

وللتعرف على التجاوزات المنهجية الشائعة المرتبطة بعدم ضبط اللغة الفنية للباحث، مما قد يؤدي إلى نتائج لا تتفق مع الدراسات السابقة أو النظريات الاجتماعية، تم بناء الجدول التوضيحي الآتي:

جدول رقم (١): الأخطاء الشائعة في اللغة الفنية للباحث٨

المفهوم	المعنى	العلاقة	الخطأ الشائع	الدلالة المنهجية
الإشكالية والمشكلة	الإشكال هو المسألة التي تثير نتائجها الشك، وتدور حول بناء منظور وهدف هذا المنظور. أما المشكلة هي نتيجة غير مرضية أو غير مرغوب فيها تنشأ من وجود سبب أو عدة أسباب معروفة أو غير معروفة تحتاج لإجراء دراسات عنها حتى يمكن التأثير عليها.	الإشكالية أوسع من المشكلة بالتالي المشكلة هي جزء من الإشكالية على اعتبار أن المشكلة مغلقة نصل فيها إلى جواب، لكن الإشكالية مفتوحة لا جواب لها.	عدم التمييز بين المصطلحين وتوظيفهما بنفس المعنى.	تحتاج الإشكالية إلى فرضية لإثباتها أو لنفيها وهي تعني الاحتمال وتعذر الاختيار نظرا للجدل القائم. أما المشكلة تعني صعوبة الحل.
الفرضية والافتراض	الفرضية هي نظرية أو اقتراح مطلوب إثبات صحته أو خطئه. أما الافتراض يُشكل واحدا من أسس البحث ولا يتم اختباره أو دعمه بالبيانات التجريبية.	لا توجد علاقة بينهما بحيث تعد الفرضية الإجابات المبدئية على سؤال البحث. أما الافتراض فهي قرارات الباحث التي لا تخضع للشك أو الإثبات.	عدم التمييز بين المصطلحين وتوظيفهما بنفس المعنى.	الفرضيات تكون في البحث الميداني أو التجارب العلمية تخضع لوجود حقيقة منفردة ذات صبغة موضوعية. أما الافتراض عادة يقوم على حدس الباحث حيث ينغمس الباحث منفصلا في الموقف الاجتماعي.
التساؤل والسؤال	تشكل تساؤلات البحث زوايا النظر وأهداف الباحثين وما يطلق عليه بمحاور الاهتمامات البحثية. أما السؤال يعرف عادة بأنه جملة استفهامية تحتاج إلى جواب.	تعبر التساؤلات عن مفهوم الباحث لطبيعة المشكلة وطبيعة الاستطلاع أو العمل البحثي الذي ينوي القيام به. أما السؤال هو معرفة غير كاملة أو غير أكيدة والتي يمكن أن تكن قابلة للنقاش.	عدم التمييز بين المصطلحين وتوظيفهما بنفس المعنى.	للتساؤل ثلاث أبعاد رئيسية هي: الأبعاد الوصفية، أبعاد العلاقات، الأبعاد السببية. أما السؤال فهو يطرح عادة حول البحوث التي تم التعرض لها سابقا ويحاول الباحث تقديم وجهة نظر مختلفة أو الإحاطة بالجوانب الغامضة في الموضوع.

لهذا، ندرك أن اللغة الفنية العربية دقيقة في وصفها وواضحة في شرحها وأنها كسائر اللغات الحية يمكن أن تكون لغة معبرة تفي بجميع الأغراض العلمية والفنية. ولتفادي الأخطاء الشائعة السابقة، يمكن أن ينتهج الباحث الأخذ بالأسلوب الموحد في كامل انجازه

العلمي لمنع الأخطاء وتكرارها. ويظهر الجدول (٢) القواعد التي يجب إتباعها والأخطاء التي يجب تفاديها أثناء كتابة البحث كالآتي:

الجدول رقم (٢): القواعد التي يجب إتباعها والأخطاء التي يجب تفاديها أثناء كتابة البحث

القواعد التي يجب إتباعها	الأخطاء التي يجب تفاديها
فكرة واحدة في البحث.	الغموض.
مفردات حيادية.	الاقتراح والإبداء بالرأي.
مفردات بسيطة.	عدم الملائمة.
الاختصار.	سوء الفهم.
الوضوح.	عدم الدقة.
المعقولية.	القصد المسبق.

مما سبق، نسجل أنه لكي يتجاوز الباحث صعوبة الأخطاء الفنية للأبحاث الاجتماعية، عليه أن يصل بسرعة إلى الإجابة عن السؤال الآتي: ماذا أريد أن أدرس؟ أو بتعبير آخر عن أي شيء أبحث؟ لقول "باتشلر.Bachellard":

إذا كنا لا ندري عن أي شيء نبحث، فإننا لن ندرك قيمة الشيء الذي نعثر عليه، أو أننا لن نعرف حقيقة ما نعثر عليه.

ب. أخطاء تعزى إلى اللغة العلمية للباحث:

إن أعراف البحث العلمي تحرص على أن تكون اللغة العلمية خالية تماما من الصور البيانية والتعابير الفنية فإن ذلك يستجيب إلى هدف الضبط والدقة والوضوح وعدم التأويل في لحظة التواصل بين العلماء والباحثين. ومن ثم فإن الجملة في درجة الصفر هي الكفيلة بتوحيد المرسل الباحث والمرسل إليه الباحث في خطاب واحد بمدلول موحد ذي مرجع أحادي اللغة.٩

ومما لا ينبغي إغفاله في هذا التحديد هو أن اللغة العلمية تمثل أداة الباحث في الكتابة البحثية والتأليف، من باب الافتراض، قد تلقاها في مختلف مراحل الدراسة والتحصيل، بعد فهم وظيفتها وتمثُّل أبعادها، ثمَّ العمل على تطبيق آلياتها وتفعيل عناصرها بشكل متكامل. ومن ثم يكون الهدف من "الفهم" و"العمل" هو تماسك محتوى الخطاب العلمي بكل مكوناته وعناصره أولا، وقيام تواصل متين بين الباحثين ثانيا.

وهنا تريد الدراسة الحالية، الإشارة إلى بعض الصعوبات التي تصادف اللغة العربية اليوم كأداة للتعبير العلمي في الأبحاث الاجتماعية. فمن جهة لا تزال كمية التأليف العلمي في الأقطار العربية ضئيلة بحيث لا يمكن بحال ما أن تعتبر ممثّلة لحالة العلم في العالم اليوم، ومن ناحية أخرى يعوز هذه الأبحاث الموجودة التهذيب كما يعوزها التجانس في المصطلحات. فكثير من المدلولات العلمية لا توجد الصيغ اللفظية لها، وبعض المدلولات توجد لها صيغ ما ضعيفة أو غير صالحة، كما أنه توجد في بعض الأحايين صيغ متعددة للمدلول الواحد مما يؤدي إلى نوع من الفوضى في أدبيات البحث الاجتماعي.

ولا خلاف في أن الأمر يتعلق بالترجمة وتعريب التعليم، حيث أثرت العمليتين على اللغة العلمية العربية ومستواها ما بين فروق مسجلة هنا وهناك في كتابات الباحثين من المشرق العربي أنفسهم وبينهم وبين نظرائهم في المغرب العربي. وبالرغم من انتشار الأبحاث الاجتماعية وسهولة الانتقال من بلد إلى آخر بفضل وسائل التكنولوجيا الحديثة وشبكة الانترنت وتطبيقاتها، فلا يزال الحديث عن توحيد اللغة العلمية العربية وتعميمها قائما لحد الآن.

وإذا كنا ندعو كما دعا الغير إلى تفضيل الترجمة إلى العربية بمعنى النقل والتعريب لاسيما التعريب الكامل، لأن أساس منهج العرب القدامى كان التعريب ونقل العلوم إلى العربية من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية، نتج عنها ازدهار حركة الترجمة، وإبداع لغة علمية عربية في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وأصبحت العربية لغة العلم الأولى في العالم.١٠ إلا أن اللغة العلمية المعاصرة في الأبحاث الاجتماعية، التي اعتمدت منذ بداياتها على التعريب الكامل، لا تزال تحتاج إلى إعادة صياغتها لغة وفكرا بالعربية وتهيئ لمرحلة

قادمة تجعل التنمية الاجتماعية تستند إلى أصول فكرية ولغوية أصيلة.

وهنا نوافق العالم مصطفى مشرّفة، الذي بيّن أن اللغة العربية ستنمو وتتطور كلغة علمية من خلال:١١

١. تأليف لجان من الأخصائيين لمراجعة المؤلفات الموجودة وتهذيبها والعمل على تجانسها، كما تكون بتكليف القادرين وتشجيعهم فرادى ومجتمعين على وضع المؤلفات في مختلف الفروع العلمية حتى تتألف لنا ثروة من الأدب العلمي يصح أن يعتمد عليها علماء اللغة في استخلاص المصطلحات والعبارات العلمية في اللغة العربية الحديثة، وتحديد معانيها ومدلولاتها بمعاونة العلماء الأخصائيين في ذلك.
٢. وأن لا يحاول علماء اللغة وضع المصطلحات العلمية وضعًا قبل ورودها في المؤلفات العلمية وشيوع استعمالها، فإن ذلك يكون من باب التسرع وقلب النظام الطبيعي لتطور اللغة، وهو في الغالب مجهود أكثره ضائع إذ لا يمكن التنبؤ بما إذا كان مصطلح من المصطلحات سيبقى ويدخل في صلب اللغة أو سيموت ويحل غيره محله.
٣. العلاقة بين المصطلحات العربية ومصطلحات اللغات الحية الأخرى. فمن الجائز استعمال مصطلح أجنبي في اللغة العربية – بعد تحويره ليتفق مع ذوق اللغة وأوزانها – بشروط أن يكون هذا اللفظ مستعملاً في جميع اللغات العلمية الأخرى أو في معظمها، ومثل هذه الألفاظ تكونُ في الغالب مشتقة من أصل إغريقي أو لاتيني لا جناح إذا اشتققنا منه كما اشتق غيرنا، أما الألفاظ الأجنبية المقصورة على لغة واحدة أو لغتين فالرأي أن يكون لها لفظ عربي مرتبط بأدبنا وتفكيرنا.

فالأبحاث الاجتماعية العربية اليوم، لا تزال بحاجة إلى هذه الخطة، ورغم اعتمادها على الترجمة العلمية وتعريب التعليم، تحتاج إلى جهود حثيثة وسرعة في استيعاب ما يجّد في العلوم الاجتماعية ومصطلحاتها، والتعبير عنها بلغة علمية عربية تمتلك الأدوات اللازمة والمصطلحات الملائمة.

ثالثا، في عمق القضية المنهجية المعاصرة، أزمة صياغة نظرية اجتماعية عربية:

يبدو أن مراجعة بعض الدراسات والبحوث الاجتماعية، المنشورة في مجلات علمية عربية، أكّدت أن المنهجية المتبعة في هذه الدراسات كانت في أغلبها ذات اتجاه كمي ولم نجد أي دراسة ذات هدف أساسي يتناول محاولة التوصل إلى نظرية. وهذا يدل على مجموعة من النقاط:

١. سهولة ووضوح إجراءات البحث الكمي والتركيز على المنهجية الكمية في المراحل التعليمية الجامعية.
٢. الخوف من المنهج الكيفي الذي يستكشف ويستطلع المفاهيم والأفكار أو النظريات بعد جمع البيانات.
٣. أن البحوث الاجتماعية تسعى إلى تطبيق النظريات (المستوردة) ومفاهيمها في البيئة العربية، ولا تستخدم الاستقراء الاستدلالي على المجتمع العربي للتوصل إلى استنتاجات في بيئتها الأصلية.

فأزمة الوصول إلى نظريات اجتماعية عربية، تتمثل في مراحلها الأولية في أنها تبتعد عن وصف المواقف الاجتماعية داخل سياق معين وتنبّه إلى احتمال وجود عدد وافر من المتغيرات بدلا من محاولة ضبط تلك المتغيرات. والبحث الكيفي في صورة علاقات إنسانية، يثير الحاجة إلى استكشاف مشاعر أفراد عينة البحث تجاه المعلومات التي يقدمونها بنفس الحاجة إلى المعلومات ذاتها. وحقيقة يعتبر الأفراد الذين يجري حولهم البحث مشاركين فيه لا عينات خاضعة له.

إنها تلك الجوانب الكيفية في الحياة الاجتماعية (الواقع)، والاهتمامات والتصورات الاجتماعية الأشمل تلك الجوانب التي تستعصي على البحث الكمي، والتي يتناولها هذا النوع من البحوث. ولا يزعم البحث الكيفي أنه يحلُّ مشكلات البحث الكمي، لكنه لا يرى في تلك المشكلات معوقات أو قيود عليه، فبدلا من أن يجد طرقا لتقليل أثر المتغيرات الاجتماعية غير القابلة للضبط فإنه يفحصها بشكل مباشر.١٢

من هنا، يمكن أن يكون الأسلوب الكيفي والكتابة ذات المضمون النوعي إجراء مفيد لتقرير خواص الظواهر الاجتماعية في البيئة العربية. ويمكن أن يكون ذلك السبيل للابتعاد على الصيغة التحليلية المستوردة من الغرب التي ينتج عنها عزل عوامل وعلاقات داخل الموضوعات المبحوثة لكونها لا تخضع لهذه المنهجية أو لا تعترف بها في بيئتها الأصلية. ويبقى البحث قي هذا الأسلوب مرتبط بتوحيد اللغة العلمية ومصطلحاتها للخروج بصيغة ممنهجة وموحدة للنظريات الاجتماعية العربية.

رابعا، نحو تصور جديد للكتابة العلمية العربية في الأبحاث الاجتماعية

إن الكتابة ذات المضمون العلمي موضوع قديم جديد في العربية، فقد ألّف القدامى كتبهم العلمية بالعربية ونقلوا إليها علوم الحضارات الأخرى في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة وغيرها. ونحن اليوم بحاجة ملحة إلى أن نعيد للتأليف أسلوبه العلمي، الذي يمكن أن نُجمل فيه المواصفات الآتية:١٣

- الكتابة العلمية، تعتمد على الأسلوب السهل المرسل الخالي من التصنيع، وجودة النسيج ومتانة التركيب.
- أساليبها التعبيرية وقوالبها اللغوية تكاد تكون مفصلة على قدر المعاني وإتقانها وتمثلها يعد من القضايا المهمة في التأليف العلمي.
- السهولة والعصرنة والبعد عن الصنعة يعد من المواصفات التي يؤكد عليها بعض الباحثين كصفة أساسية في الكتابة العلمية.
- وتقوم الكتابة العلمية على المختصر المفيد والسهل الممتنع، في وضوح وأمانة ودقة وتميل إلى الحقيقة والواقع. وهي تتطور باستمرار.

لهذا، فأسلوب الكتابة العلمية التي يُستمسك بها الآن غير تلك التي كانت في القرن الثالث عشر، أو في جزء كبير من القرن التاسع عشر، إنها كتابة علمية من إملاء العصر وروحه، فهي سلسة سائغة، لا غرابة فيها ولا تعقيد، ولا زخرف ولا صنعة وهي واضحة دقيقة تُصوّب إلى المعنى وتؤديه في إحكام، ولا تحتاج في الغالب إلى معجمات وقواميس. ١٤

وهذه دعوة إلى توحيد أسلوب الكتابة العلمية لا سيما في الدراسات الاجتماعية المعربة بشكل كامل منذ عقود، ومراجعة لغتها العلمية وضبط مباحثها وتعميق تجربة التأليف العلمي والتأصيل بها حتى تصطبغ الأبحاث الاجتماعية بالصبغة العربية. وهي أيضا دعوة للباحث الاجتماعي العربي لضبط لغته بأسلوب علمي، والابتعاد عن التعابير الأدبية في متن النص العلمي. "إذ نفترض أن اللغة تختار أدواتها التي تناسب المنهج العلمي في دلالاتها ومضامينها، من نظامها الداخلي المحكم".١٥

والحديث الموجه نحو تصور جديد للكتابة العلمية العربية في الأبحاث الاجتماعية، يستند في عمومه إلى تجويد البيئة التعليمية في كل مراحلها ولا سيما مرحلة التعليم الجامعي والعالي، ليس فقط من حيث طرق ومناهج التدريس باللغة العربية. إنما تجويد منهجية الشروح السوسيولوجية من خلال الترجمة العلمية والتعريب. فالقضية من وجهة النظر التي تؤيدها الدراسة الحالية، لا تزال ترتبط بطريقة توسع التعريب في العصر الحديث، ليعني استيعاب العلوم باللغات الأجنبية في بداية الأمر من قبل متخصصين، ومن ثم تعليم معارفهم وعلومهم التي تعلموها بلغات أجنبية ونقلها إلى اللغة العربية في الجامعات والمؤسسات العلمية العربية، أي إدخالهم الصيغ والمصطلحات العلمية إلى اللغة العربية. ١٦ وما من شك في أن الاختلاط باللغة الأجنبية قد يؤثر سلبا أو إيجابا في اللغة الأم. وفي هذا الشأن يقول ابن خلدون في المقدمة: من خالط العجم أكثر كانت لغته عن ذاك اللسان الأصلي أبعد؛ لأن الملكة تحصل بالتعليم كما قلناه. وهذه ملكة مزدوجة من الملكة الأولى التي كانت للعرب "لغة مضر" ومن الملكة الثانية التي للعجم. فعلى مقدار ما يسمعونه من العجمة وينشأون عليه، يُبعدون عن الملكة الأولى. ١٧ ولعل هذا ما يفسر أزمة الكتابة العلمية بعد التعريب، أو الإحجام عن التدريس والتأليف بالعربية لتغلب اللغة الأجنبية (الأعجمية) على ملكة اللغة العربية الأم. لذا فإن التصويب المطلوب هو إعادة صياغة: ١٨

١. حركة التعريب التي تسعى في بعض وسائلها إلى تعريب ألفاظ العلوم ومصطلحاتها تعريبا لفظيا صوتيا، بإدخال هذه الألفاظ والمصطلحات كما هي إذا كانت توافق أوزان العربية، أو إدخال بعض التعديلات الصوتية عليها بالإبدال أو الحذف أو الزيادة حتى توافق أوزان العربية. وهذا يؤدي إلى تحول الألفاظ الأجنبية إلى ألفاظ عربية بالقياس والتعريب، وهذا ليس بغريب على العربية وتاريخها منذ القدم، فالعربية اقترضت كثيرا من الألفاظ الأعجمية والمصطلحات في تعابيرها وتراكيبها دون أن يثير ذلك أي غضاضة لدى القدامى.

٢. فيتمثل بجهود العلماء في التأليف العلمي بالعربية، في محاولة لتطويع أدواتها للتعبير عن العلوم الحديثة تأليفا ونشرا وتأصيلا للعلم في العربية.

على كل، رغم العثرات التي تشهدها الكتابة العلمية العربية في الأبحاث الاجتماعية فهي تسير بخطى ثابتة في تصرفها في المعاني الجديدة، وهناك العديد من المؤلفات العربية التي يشهد لها بالإبداع والدقة والتميز. لكن من الحقائق المقرّرة أن قوة اللغة تتمثل في رصيدها الحضاري وليس في قدرتها على استيعاب الأصوات المتجدّدة.

خاتمة في عمق المسألة وجوهرها الحضاري

تواجه العربية تحدّيا صارخا في العصر الحالي، يتمثل في الكتابة باللغة العربية في الميدان العلمي، سواء في وجود المصطلح العربي أم عدم وجوده. ويشكك بعض الباحثين في قدرة العربية على القيام بهذا الدور، على الرغم من الجهود المباركة التي بذلتها وتبذلها المؤسسات اللغوية التي عُنيت بالعربية ومصطلحاتها.

ويبدو أن القضية هي قضية تقدم الأمة وهويتها وحضارتها. لهذا لابد من توجيه الأنظار إلى ضرورة اضطلاع الجامعات العربية بدورها لتحقيق التنمية اللغوية اللازمة للتقدم العلمي. كما تظهر أهمية توجيه أنظار أعضاء الهيئة التدريسية إلى وضع مرجعية واحدة للغة العلم التي قد تختلف قي كثير أو قليل عن لغة الأدب والتواصل والتبليغ وغيرها.

بل لا نعدو الحقيقة إذا تم التسليم بأن التقدم العلمي مرهون بالتقدم اللغوي.

وأن التفكير إذا ما أخضع للغة أقل انفعالية وأكثر فعالية كانت الحضارة.

هوامش البحث

١. الدسوقي، محمد (١٩٨٤)، مناهج البحث في العلوم الإنسانية، دار الأوزاعي، ص ٧٦

٢. حسين عناية، غازي (١٩٩٠)، مناهج البحث العلمي في الإسلام، دار الجبيل، بيروت، ص ٤٦

٣. نفس المرجع السابق، ص ٧٦

٤. إبراهيم لطفي، طلعت (٢٠٠٩)، مدخل إلى علم الاجتماع، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٢٥ و٢٦

٥. حسين عناية، غازي، المرجع السابق ذكره، ص ٤٦

٦. جلال، شوقي (نوفمبر١٩٧٥)، مصطلحات علم الحركة لدى علماء العرب، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج ٣٦، ص ١٩٣

٧. أبو زينة، فريد (٢٠٠٥)، مناهج البحث العلمي، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ص ٢٣١

٨. ينظر:

- علي غربي، فضيل دليو (١٩٩٩)، أسس المنهجية في العلوم الاجتماعية، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، ط ٣، ص ٧٥ وما بعدها.
- بوزيد صحراوي وآخرون (٢٠٠٤)، منهجية البحث في العلوم الإنسانية: تدريبات عملية، دار القصبة، الجزائر، ط ٢، ص ١٣١

٩. موقع الأستاذ الباحث عبد الحي العباس (١٧مايو٢٠١١)، عن اللغة العلمية في البحث العلمي:

http://alabbass.blogspot.ae/٠٥/٢٠١١/blog-post___١٧.html

١٠. حفار، عز الدين (٢٠١١)، المصطلح الطبي في القانون لابن سينا، مجلة التعريب، ع ٤١، ص ٣٩

١١. اللغة العربية كأداة علمية وتعريب العلوم (٢٠١٦/٠٤/٢٩) للعالم مصطفى مشرّفة، من مجلة الرسالة القاهرية (يناير ١٩٣٣):

https://www.ida٢at.com/arabic-language-as-a-scientific-tool

١٢. هوليداي، أدريان (٢٠٠٢): ترجمة السيد الشريفي، شوقي و محمد المزروع، هيا، إجراءات البحث الكيفي وكتابته، إدارة النشر العلمي والمطابع، جامعة الملك سعود، ص ٦

١٣. بن ذياب، مصطفى (يونيو ٢٠١٤)، اللغة العلمية بين التعريب والتأليف، مجلة الدراسات اللغوية والأدبية، ع ١، ص ١٦٢

١٤. مذكور، إبراهيم (نوفمبر ١٩٧٥)، الثقافة العربية اليوم وغدا، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج ٣٦، ص ١٩٣

١٥. بن ذياب، مصطفى، المرجع السابق ذكره، ص ١٦٠

١٦. ابراهيم، محمود (١٩٩٤)، تعريب التعليم الجامعي، عمان، دار آفاق، ص ١٨٥

١٧. ابن خلدون، عبد الرحمن (١٩٠٩)، المقدمة، القاهرة، المطبعة الشرقية، ص ١٢٧٤

١٨. بن ذياب، مصطفى، المرجع السابق ذكره، ص ١٦٨